مناقشات

ملفّ «أدب الإمارات» في «الآداب»*

سهيل ادريس

استغرق ملفّ «أدب الإمارات العربية المتّحدة» أقل من نصف صفحات العدد الأخير من مجلة **الآداب**. وقد كنّا نتمنّى ونتوقع أن يستغرق العدد بأكمله، لأننا نعتقد أنّ الأدباء الإماراتيين، شعراءَ وباحثين وقصّاصين، أكثر عدداً وأوفر انتاجاً مما تضمّنه هذا الملفّ. وكما ذكرنا في التقديم للعدد، أسِفْنا لعدم تمكُّن ادباء كُثُر من إرسال موادّهم، واعتذرنا عن عدم نشر بعض الموادّ الأخرى لأنها منشورةٌ في كتب سابقة، او لأنّها وصلتْ متأخّرة. ولا بدّ هنا من أن نكرّر الشكر للصديق الأستاذ عبدالإله عبد القادر الذي بذل جهداً كبيراً في تجميع المادّة من الأدباء، وهي مادّةٌ لا ضَيْرَ من الاعتراف بأنها ذاتُ مستويات متفاوتة، وبعضُها لا يُرضي الذّائقة الفنيّة.

ولكنّ حرصنا على استكمال مهمّتنا القوميّة في تعريف القرّاء العرب بمختلف جوانب الإبداع في مختلف الأقطار العربية، هو الذي حدا بنا إلى تخصيص الإمارات العربية بهذا الملفّ الأدبي، على ما يشكو منه من نقصٍ وفجواتٍ لا بدّ من تداركها في مقبلات الأيّام...

وإذ نشكر كذلك مبادرة «ندوة الثقافة والعلوم» للاحتفال بهذا العدد الخاصّ من «**الآداب**» نوجّه التحية الى جميع المؤسّسات الثقافية في الإمارات، كالمجمّع الثقافي والدائرة الثقافية ومؤسسة جمعة الماجد، ومؤسّسة سلطان العويس وسواها، وكلّها يدلّ على أنّ هذا البلد يقوم بدور هامّ ويبذل مثقفوه جهوداً محمودة لإبراز هذا الدور في الحياة الثقافية العربية. ونحن من الذين يعتقدون بأن الإمارات العربية المتّحدة مرصودة لإسهام فعّال في تنشيط الإبداع الثقافيّ، وهي تملك من الوسائل الماديّة والمعنويّة ما يجعلها جديرة بالمشاركة في قيادة الثقافة العربية، ولاسيما على الصعيد القوميّ.

* * *

حين تناولت عدد **الآداب** الأخير لأتحدّث عن الأدب الإماراتي الذي يضمّه، تذكّرتُ باباً استحدثناه في المجلة لدى صدورها استقبله القرّاءُ العربُ استقبالاً إيجابياً، هو باب «قرأت العددَ الماضي من **الآداب**». وكنّا نَعْهد في كتابة هذا الباب إلى نخبة من الدارسين والنقّاد والشعراء ليقيّموا مادّتَه ويحاولوا أن يدلّوا على مواضع الإجادة ومواضع الإخلال في إنتاج الكتّاب، حريصين على الصراحة وعدم المجاملة. ولم يلبث هذا الباب أن أصبح موضوعَ اهتمام وتقدير لدى معظم كتّاب **الآداب**، يُعجبهم في معظم الأحيان ويستاؤونَ منه بعضَ الأحيان لجراته.. وكنتُ أحياناً أتولّى كتابته وأنا مقتنعٌ بأنّ ما ينطوي عليه من أحكام هو أقرب إلى الاجتهادات الخاصّة، التي تقبل المناقشة وتحتمل المناقضة... ونحن نعزو نجاح هذا الباب إلى أننا كنا نفسح المجال واسعاً لمناقشة أحكام النقّاد والدارسين، وكنّا بذلك نتيح الفرصة لمزيدٍ من الحركة والنشاط الثقافي لصالح الفكر واختلاف الراي.

على أنّ مظهر الديموقراطية والانفتاح هذا لم يكن دائماً هو السائد في سياسة رئيس التحرير الذي كنتهُ حتى بداية عام ١٩٩٢. فانا مثلاً لم أكن من المتحمّسين لنشر ما يُسمّى «قصيدة نثر»، لاعتقادي بأنّ هذا اللّون مقتبسٌ كليّاً من الادب الأجنبي، ولاسيما الفرنسيّ، وأنه لا يَدْخل في تطوّر القصيدة العربية ولا يضيف إليها، بل هو يفقدها عنصراً أساسيّاً من عناصر تكوّنها، هو عنصر الإيقاع، فضلاً عن انه يشرع الفَوْضى في وجه النِّظام الذي تقوم عليه القصيدةُ العربية. ولا أذكر أني نشرتُ في **الآداب** إلاّ نصّاً واحداً للمرحوم جبرا إبراهيم جبرا يمكن اعتباره قصيدة نثر. ولكني في الحقيقة، ولأعترف بذلك، إنما نشرتُه لأنه كان يتحدّث عن مأساة فلسطين!**

واسمحوا لي أنْ أروي هنا حادثاً طريفاً يرتبط بهذا الموضوع. فقد تحمّستُ ذات يوم لنشر مجموعة من النصوص تُحسب في شكلها في قصائد النثر. وكانت لإحدى... الكاتبات... وحين سألتني سكرتيرةُ التحرير ومستشارة دار الآداب، وهي بالمناسبة زوجتي ورفيقتي عايدة مطرجي، كيف نشرتُ هذا الكتاب، أنا المناهِضَ لقصيدة النثر، أجبتُها أنّ هذه «نصوصٌ جميلة»، كما هو مُثْبَتٌ على غلافها، وليستْ «قصائد نثر». قالت عايدة: «ولكنها كلّها نصوص، بما في ذلك الشعر العموديّ!» وحين رأتني مرتبكاً ولا أجد الجواب، استطردتْ تسأل: «النصوصُ جميلة أم صاحبة النصوص هي الجميلة؟» أجبت، وأنا شاعرٌ بأنها قبضتْ عليّ: «الأمران معاً»!.

وضحكتُ، ولكنني ما لبثتُ أن كفكفتُ ضحكتي وأنا أتساءل: أليس من الخطإ أن يتّخذ رئيسُ تحرير أو صاحبُ دارِ نشرٍ زوجَتَهُ سكرتيرةً؟!

أيها الأصدقاء،

ما دام الحديث عن الشعر، فلنتحدث عن النصوص أو قصائد النثر أوالمادة الشعرية التي يضمّها ملفُّ **الآداب** الإماراتيّ. ولئن أردتُ أن أقف وقفةً متأنيّة هنا، فأنا أصارحكم بأني غير راضٍ عن معظم المادّة الشعريّة في هذا الملفّ. فقصيدة «هَزَلْتْ» لمانع سعيد العُتَيْبة من الشعر الخفيف السّريع، وهو حديثٌ عن فتاة تتحوّل عن الراوي إلى سواه، فيبلغ به اليأسُ أن يعلن موتها وهو الذي أحيا ذكرها في القبيلة، ثم يرثيها ويطلّقَ الشِّعْرَ بعدها!

ويرى الأستاذ عبدالإله عبد القادر أنّ العتيبة «يشكل بصوته الشعريّ تميّزاً واضحاً في إدخاله صوراً عصريةً جديدة في شعره». ولذلك أخشى أن نظلمه إذا حكمنا على شعره بهذه القصيدة وحدها؛ فنحن بحاجة الى الاطّلاع على المزيد من قصائده.

وقصيدة «الزمن السريالي» لشهاب غانم هي مما يمكن إلحاقُه بما يسمّي «الشعر الحلمنتيشي» الهازل الذي يتحدّث عن سرياليّة

* ـ كلمة القيتْ في ندوة «الثقافة والعلوم» في دبي، آذار ١٩٩٨.

** ـ تعليق رئيس التحرير: فاتَ صاحب المجلة انه نشر أيضاً في الماضي قصائد نثرية لمحمد الماغوط وغيره، وأنّ الآداب منذ بداية الستينات نشرت عدداً من قصائد النثر (لظبية خميس، ومحمد فهمي سند، وغسان الخنيزي، وأحمد كتوعة ووفاء العمراني وغيرهم) فاقتضى التنويه كي لا يقول بعضُ الخبثاء: «ها قد شهد شاهد من أهله»!

العصر بسخرية وتعجّب ويكتفي بإيراد أسماء متناقضة.

أما قصيدة «هذا من أنباء الطير» لإبراهيم محمد إبراهيم فيمكن استثناؤها لأنّ شاعريّتها تقوم على شفافيّة منبعثة من إيقاع مُهدْهد وحنين يتّكئ على التراث. وقصيدة «في مَدْح التفّاح» لعارف الخاجة من الشعر المدوّر الجميل المليء بالإيقاع والموسيقى والحافل بالرموز القائمة على المقارنة بين التفّاحة والمرأة. وقارئ مقطوعة «ندم» لخالد بدر يخرج متسائلاً عن سبب نَدَم المتحدّث الذي يرثي رحيل الأهل ويقف على بقاياهم ويستمع الى أصواتهم.

ويؤسفني أن أقول إني لم أتذوّق، لأني لم أفهم، نصّيْ صالحة غابش وميسون صقر القاسمي، بالرغم من أني قرأتهما أكثر من مرّة. أيكون من شروط ما يسمّى «قصيدة نثر» الإبهامُ الشديدُ الذي لا يشفّ ولا يمكّن القارئ من التقاط المقاصد ولو جَهِدَ في تلمُّسها؟ ويزيد من أسفي أني لم أظفر في دراسة الصديق كامل يوسف حسين ـ التي عَنْوَنَها بـ «ميسون صقر تحكي عن اللؤلؤ والمحار والردى، ابنة التاريخ تتحصّن بقلاع الفنّ» ـ لم أظفر في هذه الدراسة بما يُنير لي الطريق إلى فهم نصوص الصديقة ميسون... فرحمةٌ بنا أيّتها المبدعات!

بقيت «نصوص» ظبية خميس التي هي تأمّلات لا تخلو من شاعريّة وان لم تكن شعراً.

* * *

أما القصصُ المنشورةُ في الملفّ، فيخيّل إليّ أنها ضربتْ بحظّ أوفر من الجَودة والنضج. وأنّ القصة القصيرة في الإمارات بدأتْ بالتالي تحتلّ مكانها في موكب الأدب القصصي العربيّ. وسأقف هنا وقفة خاصّة عند قصّتين رائعتين ضمّهما الملفّ، هما قصة «نسمة هواء طائشة» لعبد الحميد أحمد، و«سحابة صيف» لمحمد المرّ. فالقصة الأولى بارعة في تصويرها لأشواق رجل جائع تحمل إليه نسمةُ هواء طائشةٌ رائحةَ لحم مشويّ لم يأكل مثله منذ سنوات. وحين يقصد الجزّارَ يختلط الواقعُ المزري بأحلام مهلوسة يعيشها الرّجُلُ فيخيّل إليه أنه يشتري اللّحم، ولكنه يكتشف أنّ المبلغ الضئيل الذي يحمله قد سُرِقَ منه. بيد أنّ الخيال ظلّ يلحّ عليه ويوهمه أنه يشتري اللحم ويعود به إلى بيته وأولاده وزوجته الذين يعيشون حدثاً لم يحدث إلاّ في خيال الرجل وهو واقف أمام الجزار الذي ينقلب الى جزّار للبشر، فيقطّع الرجل كما يقطّع خروفاً أو بقرةً ويضع اللحم المتناثر في واجهة المحلّ، ويلقي بأحشاء الرجل ورأسه في صندوق القاذورات ويعود إلى الواجهة «ينتظر زبوناً جديداً»، في اللحظة التي خرج فيها من الصندوق صرصورٌ أسود، ليس هو إلاّ الرجل الذي مُسخ حشرةً... وفي هذا رمز لانحدار قيمة الانسان المحروم من لقمة الخبز والذي يتحوّل على أيدي الجزّارين من البشر المتخمين الى حيوان ممسوخ!

وأما قصّة «سحابة صيف» لمحمد المرّ فتدلّ على قصّاص قدير في السرد التلقائيّ البعيد عن التصنُّع وهو يصوّر فصلاً من فصول النّفاق والكذب على النّفس تمثّله امٌّ وضعتْ مولودها بغياب زوجها، وكانت حولها امُّها وأختُها تهاجمان الزوج وتُلصقان به كلّ نقيصةٍ وتختلقان الأراجيفَ عنه، بل تصرّح الزوجةُ أنّها ستطرده اذا جاء، ولكنها حين يحضر تنقلب الى الترحيب به معبّرةً عن شوقها الشديد إليه، ممثّلةً بذلك نموذجَ التقلّب الحربائيّ الدجّال.

ونشير أخيراً، في مجال قصص الملفّ، إلى ما يتميّز به محمد حسن الحربيّ من حاسّةٍ عميقة للتركيز، وبراعةٍ في الحبكة القصصية. وقصته القصيرة التي عنوانُها «اضطرب الرجل وهو يرفع جثّة القطّة» ترمز إلى التناقض البشريّ في شخصية إنسان يبلغ غاية الألم وهو يرفع جثة قطّة مدهوسةٍ مدمّاة من الشارع، ويدفنها بالقرب من منزله، ولا يتناول يومَها ـ من شدة حزنه ـ طعامَ الغداء مع عائلته كالمعتاد. ويفعل الشيء نفسه يوم يموت العصفور داخل قفصه فيأخذُهُ الى الطبيب طالباً تشريح جثّته للتأكّد من سبب موته المُحزن... ومن رقّته كان يبكي أثناء نَوْمه في اللّيل، ولوداعته كان أطفالُ الحيّ يتحلّقون حوله، يشكون إليه سوء معاملة آبائهم وأمّهاتهم لهم، فكان يزورهم في بيوتهم ليقرّعهم بشدّة، وكانوا يتقبّلون منه هذا السلوك الإنساني بابتسامة، ويعتذرون له بصدق حميميّ. وخاتمة القصّة تحمل المفاجأة بكلمات قليلة، بسيطة، خالية من أيّ تعليق: «يبدأ سعيد عمله بعد منتصف اللّيل وينتهي في ساعات الفجر الأولى، ويعود الى منزله منهكاً. كانت مهمّتُهُ زيارةَ البيوت الآمنة، يسحب شبابها الى غرف التّعذيب حتى الموت!».

لا يعلّق محمد حسن الحربيّ بشيء، ولكنه يوحي لنا بصورة أخرى عن الدكتور جيكل ومستر هايد...

* * *

بقيت الدراساتُ والبحوثُ التي انطوى عليها الملفّ، وهي تتناول بالتأريخ والتقييم بعض الإنتاج الإماراتي في ميدان الشعر والقصة. ولنا عليها الملاحظات التالية:

أولاً: انها قليلة نسبياً، وكنا نتمنّى منها المزيد.

ثانياً: انها بمعظمها مكتوبة بأقلام غير إماراتية، وبهذا حُرِمنا من معرفة المستوى الأدبيّ للنقّاد والدارسين المحلّيّين.

ثالثاً: كانت دراسةُ عبدالإله عبد القادر، الذي أعدّ الملف، دراسةً بانورامية شاملة تناولت الشعرَ والقصةَ والروايةَ والمسرح، ولكنها لم تتطرّق إلى النقد. أيكون الانتاج الإماراتيّ خالياً من النقّاد والدارسين؟

رابعاً: كنّا نتمنى أن يضمّ الملفّ بعض نماذج الشعر النبطي الذي يبدو أنّ له تاريخاً ومريدين.

وقد تحدّث رمضان بسطاويسي محمد عن محمد أحمد السويدي بصدد ديوانه **أساور في ذراع القمر**، وكنا نودّ لو نشرنا في الملف بعض إنتاجه باللغة المحليّة، وقد قرأتُ له بعض إنتاجه فيها، وخرجتُ بأنّ اللغة المحليّة تتطوّر تطوّراً كبيراً في اتجاه الفصحى، وأنّ قضية لقائهما هي قضيّةٌ وقت أكثر مما هي قضيّة بنية. وقد استمعتُ حقّاً بكثير من قصائد السويدي في أربعة دواوين له، ومنها أساور في ذراع القمر. وربما كان استمتاعي بها عائداً الى أني قرأتها متغنّياً كما أقرأ القصيدة الفصحى، مثل قصيدة «ثورة الأشواق» التي مطلعُها «أغالب كَتْمَ أشواقي وودّي وأحمل عن فِراقِكِ فوق جهدي». ولا بدّ أن تكون هناك طريقة أخرى لقراءتها باللّغة المحكيّة تقوم على تسكين أواخر الكلمات... ومع أنّ السكون جميل أحياناً وأنه مطلوب في أوقات معيّنة، فإنّ «تحريك السواكن» أكثر انطباقاً على هذا الرجل المميّز بنشاطه وطموحه: محمد أحمد السويدي، القائم على واحد من أهم المجمّعات الثقافية في الوطن العربيّ!

خامساً: حُرِمْنا في الملفّ من صوت شاعرٍ إماراتيّ أحببناه هو حبيب الصايغ الذي وردتنا في الحقيقة بعضُ قصائده، ولكنّ سَبْقَ نشرها حال دون إثباتها، ونطالبه بتعويضها في أعداد قادمة من **الآداب**!

* * *

أيّها الأصدقاء والصديقات من مبدعي الإمارات!

إن مجله **الآداب** لسعيدة كل السعادة أن تكون صفحاتها في هذا الملفّ الخاصّ منبراً لأصوات الإماراتيين وأقلامهم ومواهبهم. ولتعذرونا إذا وجدتم في ما أسلفنا من آراء وأحكام بعضَ صراحة؛ فهذه ليست إلا اجتهادات كما ذكرنا سابقاً، باب تقييمها مفتوحٌ على مصراعيه. وستظلّ **الآداب**، وهي اليوم في عامها السادس والأربعين، منبراً لكل المبدعين العرب، ونحن نعتقد أنّ الإمارات جديرة باحتلال مكانٍ مرموق في إقامة صرح الثقافة العربية بتوجّهها في الميدان القوميّ والإبداعيّ في آن.

الإمارات العربية المتحدة